

مقاربة نظرية لسوسيولوجية عصبية التنظيم وفعاليتها عند ابن خلدون.

الأستاذ: بوكريوط عزالدين

دكتور دولة في علم الاجتماع التنظيم والعمل

أستاذ محاضر ١ - بجامعة الجلفة

aboukerbout@yahoo.fr

الملخص:

ترتبط هندسة التنظيم والعمل في المجتمعات المتقدمة صناعيا بالعقلانية في التخطيط والتوجيه والإشراف والرقابة وجودة حلقات الإنتاج وارتباطه بالسوق وقوانينه وشدة تنافسيته، وبشكل خاص ببيروقراطية تسيير على النمط الفيبري وضوابطه مما ينتج اجتماعيا واقتصاديا فعلا دو رواسب منطقية لا تتناقض ومحتوى تلك الهندسة المصممة باتفاق أعضاء المؤسسات الاقتصادية أو الخدمائية أو الإدارية وتحقق نجاحها وتفوقها في مختلف المجالات. لكن غالبا ما يحتكم تصميم التنظيم والعمل في مسار المؤسسات الاقتصادية الجزائرية ودورات حياتها إلى عصبية تقيد المهارات والخبرات الفنية والتقنية والإدارية يجعلها عصبية تابعة لضوابطها وأهدافها بغرض المحافظة على مصالحها وامتيازاتها الوظيفية والمادية مما ينتج اجتماعيا واقتصاديا فعلا دو رواسب غير منطقية كثيرا ما تتناقض وطبيعة مشروع المؤسسة وهويتها.

تمهيد:

إن التعدد في تناول النظري و المفاهيمي الخاص بنظريات التنظيم والتوسع في اختلاف أطرها نظرا للمداخل المختلفة في مستوى طرحها ونظرتها إلى التنظيم ذاته يجعلنا نقف على خضم التراث الإنساني والتأني في مرجعية الوقوف على محتوى بعض الرواد أو الأنصار من أجل إقحام تصوراتهم في مختلف مستويات التحليل.

يجب أن تتم دراسة الأفكار المفاهيمية التنظيمية على أساس الخلفيات الإنسانية الاجتماعية المتحوّلة والاعتماد على المقاربات التي تخدم تصورات الباحثين وواقعهم السوسيولوجي من أجل رفض الأفكار الزائفة و هي الأفكار التي تحيد عن كشف الحقائق وتشخيصها بكل موضوعية خاصة إذا أمثلت هذه الأفكار إلى الدوائر الرسمية لصنع القرارات لأنها تموقع ذات الأفكار في المستويات التحليلية إلى ترجمة الأهداف الذاتية، مما يدخلها في مجالات الشك والريبة ويفقدوها الالتزام بلا حيادية التصورات والمواقف، ويعلمية النتائج وتبريرها، وربما تعكس هذه المحاولة على الأقل رسم إطار يقرب تموقعنا النظري مع المجتمع الجزائري وأنساقه وديناميكياته.

1-العصبية ومقومات الفعالية الخلدونية:

لقد ابتدع ابن خلدون في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع عشر موضوعه ومسائله التي لا تزال إلى يومنا هذا بالغة الأهمية على الرغم من مرور ستمائة سنة، مع التطورات الاجتماعية التي أحققها العلم والتكنولوجيا والتصنيع. وتعرّف العصبية بأنها >> الولاء والحلف إذ نعمة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة... لأجل اللّحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريبا منها <<¹ فهي إذن تعني الميل الفردي والوجداني لتحكيم ومناصرة من هم أقرب، ثم تخصيص الانتماء الفردي ذاته إلى كل مجالات الحياة الاجتماعية بهدف المناصرة والمدافعة والحماة لمن تكّن لهم الولاء والطاعة والمحابة والتقرب بالنسب والقبلية. فضلا عن >> رابطة معنوية ذهنية، تصل وشائج القرى، وتشد اللحمة بين الأقرباء، والأولياء <<⁽²⁾ وهذا ما يدل على أن الرابطة القرابية تشدها قوى خارجة عن إرادة الأفراد مهما اختلفت مجالات انتماءهم في المجتمع وتدرجها سواء الاجتماعية أم الصناعية أو الثقافية وغيرها، وهذه الرابطة تتقوى من ذاتية الفرد وميولاته لأنها تتوسع أكثر فأكثر حينما يلتمس بأن ميله معنوي لما يفترض أنه يتقوى بوجودهم وبشدة التقرب إليهم.

2-التنظيم من النسق المغلق إلى النسق المفتوح:

إن البداوة في نظر ابن خلدون هي التعبير عن بلوغ مرحلة أولية من الحياة الاجتماعية وهي المرحلة الأساسية التي يجب المرور بها، وهي تعيش مرحلة البساطة سواء في طرق العيش أم امتلاك الوسائل اللازمة لتنظيمها ونسج علاقات أفرادها نسجا نسقيا مغلقا، لكونها مجتمعات صغيرة لا تكاد تتجاوز القبيلة التي تعتمد في مصادر كسب رزقها على الفلاحة و الرعي والصيد بوسائل بدائية، نظرا لعدم كمال قدرتها على الصنع وإنجازها لما تتطلبه ضروريات القبيلة ذاتها. إن المجتمع البدوي وتنظيمه البسيط المعتمد على علاقات اجتماعية مغلقة هو فعلا التنظيم الذي يقترن بمرحلة التخلف.

بناء على هذه الخصوصية المجتمعية فإن المجتمعات التي مرت بها لا بد من تجاوز بنيتها التنظيمية المختلفة بالبحث عن تنمية قدراتها الذاتية ويلجأ الأفراد إلى الاهتمام بالكماليات وتطوير الوسائل التي تساعد بلوغ مرحلة التفنن في الميدان

الصناعي والإنتاجي الموفر والموسع إلى إعادة تنظيم علاقتها الاجتماعية في امتدادها المتشابك والمتداخل مع بيئتها الخارجية وتتفاعل معها، فمن الطبيعي أن هذه المرحلة المتسمة بخصوصية النسيج العلائقي الممتد في نسق اجتماعي مفتوح تطبعه الصناعة، وتصبح متلازمة للحياة الحضرية في مجتمع واسع تتعدد فيه الوظائف في مختلف الميادين، وتتعدد أكثر فأكثر بعدما ألفها الفرد ببساطة تركيبها و نسقها، لذا يصبح العمران الحضري في المفهوم الخلدوني دليلاً عن تقدم المجتمع في جوانب حياته الاجتماعية والسياسية والعلمية والصناعية والاقتصادية والعمرانية والبيئية، وتفرز وظائفه الاكتمال والدقة والتركيب وعلاقات اجتماعية أكثر تعقيداً.

3-العصبية: الانتقال من فاعلية النظام إلى فاعلية التنظيم:

إن التفاوت في درجة العمران منها ما يكون بسيطاً قريباً من حياة البداوة البسيطة (المغلقة)، ومنها ما يكون مركباً يبلغ في نسجه التعقيد (المفتوح)، وكلاهما يرتبطان ويتفاعلان آلياً مع فاعلية النظام السياسي لأن جوهر هذا النظام نفسه يعكس لنا تنظيم المجتمع في مستواه الكلي وتجاوزه لمرحلة القومي للحركات والانقسامات الصغيرة في مستواه الجزئي التي عادة ما يعتمدها الفرد نتيجة بحثه عن تلبية حاجاته و ضرورياته اليومية اجتماعياً.

وتصبح حينها السياسة الوسيلة المثلى لرفض أشكال الصراعات التي كانت قائمة بين أفراد المجتمع لحاجيات العيش، والاتجاه نحو التعاون مع بعضهم البعض في شكل قبائل متضامنة تجمعهم الحاجة إلى فرض وجودهم وتأمين معاشهم، لذا فإن فاعلية النظام الاجتماعي هو نسج البناء الكلي الذي لا يكتمل تحقيقه و وجوده إلا في ظل إقامة سلطة سياسية فاعلة.

إن فاعلية تنظيم السلطة السياسية هي التي تفكك كل الخلافات ويحل محلها الأمن والاستقرار الاجتماعي والتعاون بين الأفراد، فيلجؤون إلى اختيار قائد من بينهم تتوفر فيه القدرة على الزعامة والحنكة والبصيرة وقوة العصبية التي تمكنه من أداء وظائفه وتمركزه في سلطة القرار وصنعه وإتحاده، وهي عصبية متحدة من أهله وأقاربه وأنصاره المقربين، لكن المهم فالسلطة السياسية الفاعلة التي أنتجت بإرادة جماعية واختيار حر في البداية و باتفاق كل الأفراد، سرعان ما تتحول إلى سلطة قاهرة تتميز بالتنظيم الذاتي الفعال يتموقع ضد أهداف وحاجات الأفراد الذين دافعوا واختاروا الامتثال لقائدهم، ويصبح صاحب تلك السلطة متنكراً حتى لعصبته من أهله وأقربائه وأنصاره، وهم في الواقع دعائم المكانة التي تجذب له القوة الاجتماعية الحقيقية رغم إخلاله بالمصالح الاجتماعية، ونظراً لإفراز الانتهازية السياسية الأكثر قهراً.

إذن فهذه العصبية التي تمكن المسؤول ربما غير الكفو من الانتقال من القيادة الجماعية إلى الاستبداد وحينها تصبح الغلبة لإشراف البدو الذين ازدادوا قوة بفعل المصالح الفئوية الاجتماعية الناجمة عن المجتمع الجديد وهو المجتمع الحضاري السياسي.

إن العصبية المضادة أي الخارجة عن الأهداف الاجتماعية تجعل من المسؤول لا يدرك من الوضع إلا ما يخدم مصالحه الذاتية بدلاً من المصالح الجماعية، ويُنبذ أنصاره وعصبته مما يؤدي إلى التصدع في البناء الاجتماعي الكلي القائم على التعاون وروح العمل الجماعي، وينقسم المجتمع أو يزول الحكم بعد انحلاله التام.

إن الدينامية الداخلية لفاعلية النظام الاجتماعي تعتمد التمييز الأساسي >> بين البداوة والحضارة والواقع أن

أسبقية البداوة على الحضارة هي ما يكشف عن فكرة التبدل التي تكشف بدوره، بتوضيحها في مفاهيم العصبية والملك، عن دور العامل الديني. << (3)

يحتاج الفرد إلى وسائل حياتية متجددة ومستمرة فهو متحرر من غرائزه الضارة ويعي دوره الفعال في تحقيق أهدافه، وهذه الأهداف يجب أن تنظم إلى أهداف الجماعة التي ينتمي إليها ويتعاون معها حتى يكتمل نقصه ويتحصل على أغراضه المستمدة من قوة عصبية جماعة العمل.

إن تحليلات الباحث للفكر الخلدوني بمقاربة سوسيولوجية خاصة بمجال التنظيم الصناعي يجعلنا نقف على التفسير الخلدوني السوسيولوجي والاقتصادي للدولة، إذ لا يمكننا التوسع في عمق النظرية الخلدونية وتجسيدها البراغماتي إلا بفك الارتباط التاريخي الموضوعي ما بين الدولة ككيان منظم للعلاقات الاجتماعية للسلطة العصبية من وجهة نظر ابن خلدون الذي يختلف عن كثير من المنظرين الآخرين الذين يعتبرونها كوسيلة للهيمنة الإيديولوجية للقوى الفاعلة في المجتمع - وجهة نظر ماركسية - أو باعتبارها كسلطة ضبط وتوازن لسلطة سياسية - وجهة نظر وظيفية - وغيرها.

4- قوة العصبية: الدولة والتصنيع نحو أي فعالية؟

إن المجتمع الذي ليس له نظام سياسي لا يمكنه أن يقيم المدن والأنصار، لأن نشأة المدن تتطلب نظاما اجتماعيا منسجما، وسلطة مركزية مستقرة، تساعد على إقامة المؤسسات الاجتماعية والمشاريع العمرانية وإلى عاملين و رؤوس أموال، و لا يكتمل كل ذلك إلا في ظل إقامة النظام السياسي الذي يشرف على المجتمع وينظم جل مؤسساته وتنسيق أعماله، فكثير من الدول تنهار ولا تصل إلى إنجاز مشاريعها التي تتممها السلطة القائمة.

إن الحياة الاجتماعية التي تقام على الأسر وتتطور إلى العشيرة التي تضم عددا من الأسر التي تعود في أصلها إلى أب واحد ثم تتفرع تلك العشيرة إلى عدة عشائر التي تشكل قبيلة، و في العشيرة تبدأ روح الجماعة تقل وخاصة بانتقالها إلى القبيلة، وشعور الأفراد أنهم ينتسبون إلى أصل واحد، الأمر الذي يدفعهم إلى التعاون عند الأخطار، ثم أن هذه التجمعات الصغيرة النابعة من الأسرة لم تفتأ أن تتجاوز هذه المرحلة من المجتمعات الضيقة إلى مجتمعات أكبر وأوسع، وهي تكوين دولة بإتحاد عدة قبائل، وهذا الإتحاد يتسم عن طريق الانضمام والتحالف نتيجة وجود قرابة بواسطة مصاهرة أو دفاع، أو بواسطة القهر والتغلب، وفي البداية تكون الدولة صغيرة ثم تأخذ في التوسع والارتقاء تدريجيا، إلى أن تتحول إلى دولة كبرى ذات نفوذ واسع وخاصة إذا كانت ذات عصبية قوية وأرقى من العصبية الأخرى.

فهكذا تتحول العصبية من العصبية الضيقة إلى العصبية الواسعة، ومن الحياة الفوضوية إلى الحياة النظامية لأن المجتمع بعدما كانت الجماعات القليلة متفرقة تسعى إلى كسب العيش بالوسائل البسيطة، وبسبل غير منظمة تلجأ إلى التعاون، وتنظيم عملها نظرا لخضوعها إلى قيادة عصبية محورية مستقلة رشيدة.

إذن التحول الطبيعي من أسلوب الحياة البسيطة المعتمدة على الزراعة والرعي والصيد في مرحلة البداوة إلى أسلوب الحياة المعقدة نظرا لتجمع مختلف القبائل و تأسيس دولة بقوة العصبية المحورية المستقلة يتم الانتقال الاجتماعي من البداوة إلى مرحلة الحضارة ، لأن التعاون في أداء العمل المنتج وتنسيق الأعمال وتوفير رؤوس الأموال عن طريق النظام السياسي الفعال، يؤدي لا محال إلى توطن التصنيع والتفنن في الصنائع والإنتاج الموسع، والتخصص وبالتحديد إنشاء

ال عمران، لهذا فمرحلة الحضارة تتطلب التكيف مع حاجيات اجتماعية جديدة لأن التقشف وبساطة العلاقات الاجتماعية قد زالت بزوال مرحلة البداوة.

فمن الطبيعي حينها أن تتوسع المشاريع الكبرى، وتتوسع الأعمال و يزداد الطلب على الكماليات. ففي المجتمعات المتحضرة تتسم فيها الصناعة بالتركيب >> وتعتمد على العلم والمنهج الجيد في تعلمها وبما أن أهلها اجتازوا مرحلة البداوة القائمة على تطور الصناعة باستمرار، هذا فيما يتعلق بالصناعة في العمران الحضري الكثيف السكان.<<⁴ ولا يتحقق كل هذا إلا بفعالية النظام السياسي-الدولة- والتي يكمن تحقيقها في الواقع بفضل إقامة فعالية للتعاون والانسجام بين الأفراد، وتحقيق الرفاه والاطمئنان، لأن مسار المجتمع و مشاريعه وصناعته وحضارته لا تنشأ إلا بتوفر الاستقرار الاجتماعي والأمن والاستغناء عن الصراعات والعدوان.

إن خصائص هذه الفعالية تبرز لنا جلية في نشأة و نمو المجتمع وتنظيمه الذي يفرض فيه التخصصات والتفنن وإتقان العمل والمهن، ويصل إلى درجة كمالية من الرقي والتقدم، على الرغم من انحطاطه عندما يصاب بدرجة عالية من الضعف والانحلال لأنه وببساطة >> المثلّك والدولة غاية العصبية، وأن الحضارة غاية للبداوة و أن العمران كله من بداوة و حضارة و مثلّك وسوقه له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا.<<⁵

إذن فالتصور الخلدوني يطرح ديناميكية نشوء الدولة و قوتها ثم انحطاطها، لأنها تقترن بالعمر المقيد زمانا، و يبقى المجتمع ومؤسساته في حركية دائمة و تغيير مستمر مهما كان هذا التغيير تقدما أو انحيارا، لأن >> أحوال العالم و الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص و الأوقات والأمصار، فكذا في الأفاق و الأقطار والأزمنة والدول.<<⁶

إن العصبية التي تبدأ من كونها في الأصل >> تدل على فئة ذات قوة صاعدة، لتغدو فيما بعد اسما يحدد فئة السلطة المستفيدة من الدولة.<<⁷ هذه الفئة المستفيدة هي التي ينبغي لها أن تقيم المشاريع الصناعية الكبرى والمؤسسات الاقتصادية الإنتاجية، وتمكن من استخدام مختلف المصنوعات وتوزيعها واستهلاكها فضلا عن تنظيمها للأسواق وترويج للقطاعات الإنتاجية الصناعية، وتدعم توسعها وازدهارها، بل وتنظم كل المؤسسات الاقتصادية، باعتبارها الوسيلة التي تضمن الرخاء والوفرة والتقدم، لكن الانشغال المطروح في نظرنا يتحدد في تشخيص ماهية الشروط الموضوعية التي يجب أن تتوفر في المسؤولين والمسيرين لنجاح تنظيم وتسيير المؤسسات التي يجب أن تتوافق مع السلطة السياسية، باعتبار أن الدولة هي المنظم الوحيد لآليات استمرار توسعها ونموها.

إن المنظور الخلدوني يراعي في تصوره الشامل والكامل على أن اختيار المسؤولين والمسيرين يتم على أساس توفر شروط القوى فيهم، وهذه القوى تكمن في قوة شخصيتهم و قوة عصبيتهم التي تتبعهم أمام مواجهة المشكلات الطارئة، وتساعدتهم على فرض النظام وحفظ الأمن وقهر كل القوى الداخلية والخارجية التي يمكن أن تشكل خطرا يهدد مكانتهم ومصيرهم. مع العلم أن كل نظام عصبي يبني عند ابن خلدون >>بفضل الملك بكيفيتين: إما لتدعيم السيادة القائمة، أو يصبو إلى السيادة والهيمنة، وإسقاط السلطة الضعيفة، غير القادرة على ضمان المعاش والعلوم، أي العمل والتربية

للجماعات. << (8)

5- سوسيولوجية عصبية السلطة في التنظيمات الصناعية الجزائرية:

إن فعالية السلطة عند ابن خلدون ليست >> وليدة تقسيم المجتمع إلى طبقات ولا وليدة التقسيم الاجتماعي للعمل، بل هي وليدة العصبية التي لها أساس ثقافي و تعبر عن أنساق من التصورات المؤسساتية والإيديولوجية التي تراكمت تاريخيا وفق عمليات ديناميكية التي عرفها مجتمع البدو والحضر على حد سواء.⁹

إن الفعالية في نظرنا تأخذ شرعيتها الاجتماعية من التوافق الطبيعي بين إرساء القواعد النظامية التسييرية و القوانين (لوائح ومقررات تنفيذية داخلية ونصوص تنظيمية) التي تحافظ على استمرار دور السلطة الفاعلة في استمرار حياة المؤسسات، و المهم أن دور هذه السلطة الحقيقية يجب أن تهيكلها قوة العصبية خاصة في مجتمع الحضر (المجتمع المعاصر) التي تأخذ فيه المهن والمشاريع الصناعية الكبرى وتوزع المنتجات وتزايد الحاجيات والكماليات والطلبات الاستهلاكية الواسعة... الخ.

و في هذا المجتمع بالذات تتضافر العمليات الديناميكية البنائية في مستوى النظم الاجتماعية المختلفة سواء السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية، و بخاصة على حد تعبير حسن الساعاتي >> النظام التساكني في شكله البدوي و الحضري.<<¹⁰ وبداخل المؤسسة الصناعية الجزائرية شكلت الفئة التقنوبوروقراطية التي توأمت تاريخيا مع الدولة للمحافظة على تراكم رأس المال المالي، وتوزيع التوازنات الشكلية للسلطة إلى درجة التفويض لهذه الأخيرة كثيرا من الصلاحيات التسييرية.

مما أفرز في نظرنا قوة عصبية محورية مستقلة التي تمثلها هذه الفئة بالذات، وهي في الواقع نتجت عن إمام مختلف جماعات العمل وولائهم و ثقتهم و إنصياغهم نحو اختيار المسؤولين طوعية نتيجة قوة العصبية التنظيمية التي بفضلها ترتب سلطة هؤلاء المسؤولين في اختيار الإستراتيجية التسييرية، واختيار أفضل القرارات الملائمة مع الوضع الاجتماعي القائم، فضلا عن تعزيز مكانتهم وتقوية روابطهم و تقربهم أكثر إلى صانعي القرار السياسي الذين يعتبرون بدورهم أقوى عصبية محورية مستقلة على صعيد النسق السياسي (الدولة).

فيبقى دور العصبية المحورية المستقلة التي تتشكل داخل المؤسسة الاقتصادية رأسيا في مستوى أعلى هرم تدرج المسؤوليات التنظيمية و أقواها سلطة، وتسلك الأهداف الإيديولوجية التي يحملها المشروع التنموي الوطني، الذي يتم تجسيده في شكل قرارات إلزامية داخلية.

فلا ريب أن هذه العصبية المحورية المستقلة تلتزم بتنفيذ كل الاختيارات الإستراتيجية الصناعية الوطنية عن قناعة لكونها مهيكلتة في نسق من العلاقات التنظيمية الرسمية لذلك نراها تدافع بقوة عصبيتها عن توجهات إيديولوجية الدولة في تبنيها لنماذج التطور الاجتماعي الرأسمالي وبخاصة عن تخليها التام عن إعادة النهوض و الدفاع عن القطاع الصناعي العمومي الوطني، وميلها أكثر نحو إعادة تطهيره ماليا وتكنولوجيا وتنظيميا بل تدعيم خصوصيته.

إذن تدافع العصبية المحورية المستقلة عن الخطاب الإيديولوجي الرسمي و القانوني للدولة فهي تدرج تحت قوة عصبية هذه الأخيرة أيضا، لأنها أقوى العصبيات وأشدّها سلطة ونفوذا فتحترمها و تهابها و تندرع إليها في حالة الأخطار

وسوء التوقعات في التسيير والإشراف والتوجيه والرقابة.

كما تحمل العصبية المحورية المستقلة كل الانشغالات الإستراتيجية لعصبية الدولة في تنفيذ مشروعها وتقرير اختياراتها الصناعية، فبعدما صادقت ونفذت سياسات تنظيمية وتسييرية مختلفة في حياة تطور المؤسسة الاقتصادية العمومية بدءاً من التسيير الذاتي للمؤسسات ومروراً بالتسيير الاشتراكي و وصولاً إلى اختيار بدائل تسييرية لنجاعة وفعالية هذه المؤسسة بانتهاج الخصوصية، نراها تلتزم شرعية خطاب الدولة القانوني الخاص بالاتجاه نحو تسريح العمال نهائياً أو التقليل من عددهم جزئياً باتخاذ إجراء التقاعد المسبق و الذهاب الإرادي، لكنها كثيراً ما تخفي الحقائق الموضوعية، وتبرر سوء التسيير أو الفشل في مشروعية الاختيار الإستراتيجي البعيد المدى لأسباب عدم فعالية أداء العاملين.

لذلك نجد العصبية المحورية المستقلة للمسؤولين تتمركز في المحافظة على مكاسبهم ومكانتهم المهنية والاجتماعية وخدمة مصالحهم، وهي مصالح لا تتوافق مع الأهداف التنظيمية و التسييرية للمؤسسة الاقتصادية.

رغم ذلك فإنهم يخططون وينسقون ويشرفون ويراقبون الأداء العمالي الفني والإداري والتنفيذي على حد سواء، ويسعون للمحافظة على الولاء وطاعة المرؤوسين، هؤلاء المرؤوسين يمثلون العصبية الثانوية التابعة لهم في مختلف المستويات القيادية أو غير قيادية الأفقية والعمودية داخل المؤسسة.

وتحاول العصبية المحورية المستقلة المحافظة نسبياً على تقديم بعض الخدمات للعصبية الثانوية التابعة كإرسالهم في بعثة للتكوين والتربص أو الترقية الداخلية، أو منحها وتفويضها بعض الصلاحيات لاتخاذ القرار الذي لا يتطلب في كثير من الحالات تفويضها الرجوع إلى المركزية خاصة إذا كان نظام المؤسسة قائماً على النهج الديمقراطي في التسيير.

وبالمقابل عندما تنحصر أو تغيب هذه الخدمات والامتيازات وتشعر العصبية الثانوية التابعة التي يشكلها المرؤوسون بأن المواقف الرسمية للعصبية المحورية المستقلة (المسؤولون) قد تغيرت بتغيير المناخ التنظيمي خاصة إذا كان التغيير حتمي وبمليه النسق الاقتصادي الاجتماعي والسياسي كالتوجه نحو الليبرالية وخصوصته كقطاع عمومي ... الخ.

باعتبار المؤسسة الاقتصادية نسقاً مفتوحاً فلا ريب أن العصبية الثانوية التابعة تأخذ الحركية السلطوية الداخلية مأخذ الجد، خاصة عندما تنفذ قرارات تقليص من عدد العمال فتتلاشى عصبيتهم التي كانت بالأمس تتموقع في قوى العصبية المحورية المستقلة.

وبعد تموقع العصبية الثانوية التابعة بالذات والإنصياع و الولاء والطاعة والاحترام للعصبية المحورية المستقلة بسبب فقدانها للمهارات والكفاءات الفنية أو الإدارية أو التنفيذية العالية، نظراً لكون فعاليتها منصهرة و مندمجة في مركز عصبيتها.

على هذا الأساس فعندما تدرك العصبية الثانوية التابعة (المرؤوسون) بأن مصيرها وأهدافها تتناقض مع الأهداف التنظيمية للمؤسسة، وأن مكانتها فيما تفرضه الفعالية الاقتصادية الرأسمالية التي تقوم على مبادئ المهارات والكفاءات العالية والجودة والمنافسة والخضوع إلى قانون العرض والطلب ... الخ، وهي مبادئ مفقودة الحلقات في المؤسسة التي ينتمون إليها ويعملون بها منذ سنوات عديدة، وأن إدماج هذه المؤسسة في المحيط العولمي أمراً يهدد مناصب عملها، وقد يحيلها على البطالة الفنية، لذا تلجأ إلى إعادة تشكيل قوة عصبية جديدة لأمرين أساسيين:

- التموّج مع عصبية بديلة تحدم أهدافها ومصالحها مهما اشتدت الظروف المهددة لبقائها.

- التموّج مع عصبية بديلة تعيد بناء إستراتيجياتها التحالفية ضد العصبية المحورية المشتغلة للإطاحة بها واستبدالها.

وبديهي أن العصبية المحورية المستقلة بحكم قوة عصبيتها تدافع عن مكانتها بحكم القوانين السارية المفعول، وتلجأ إلى إصدار العقوبات و الأحكام الجزائية التنظيمية الداخلية لفرض النظام وتهمين العصبية التابعة (المروّسون) ، فضلا عن لجوئها لتعزيز سلطتها بإعادة تحالفها مع العصبية الهامشية، فهي عصبية غير رسمية تشكل من العمال الممتدين في المحيط الاجتماعي الخارجي والمنتمين إلى نفس مؤسسة العمل.

فالعصبية الهامشية هي عصبية نفس المؤسسة المتواجدين و المنتشرين في الأحياء أو المساجد أو المقاهي أو النوادي الرياضية والجمعيات الوطنية أو الأحزاب السياسية، تبحث عن الدعم الذي مركزه قوة العصبية المحورية كي تعزز دورها في المؤسسة لصالح خدمة أهدافها بدل أهداف التنظيم. بالإضافة إلى ذلك فالعصبية الهامشية لا يهتما من عصبيتها إلا الولاء أو بحكم قرابتها أو علاقة المصاهرة التي تربطها في تحالفها مع العصبية المحورية المستقلة (المسؤولون) بهدف التحصل على المكاسب والحوافز المادية ودعم طلباتها وتغطية احتياجاتها المستمرة.

ولا تبحث العصبية المحورية إلا على تقوية نفوذها من الداخل، الذي يتأتى من مصادر السلطة القريبة من مراكز تواجدها، باعتبارها وسيلة تنفيذية لكل ما يصدر عن هذه الأخيرة من قرارات. لذا فإن طموحات العصبية المحورية المستقلة تتجاوز الأهداف العامة التي يرسمها تنظيم المؤسسة الاقتصادية العمومية، لأنها تلزم بخدمة الأهداف الشخصية المسترة لأصحاب القرار الفعليين في قلب جهاز الدولة، وبحكم ولائها لها، فهي لا تناقض أو ترفض خطاها بل تجسده، وفي بعض الحالات على أنقاض المصالح المشتركة للعمال، فلم تسع العصبية المحورية المستقلة إلى محاولة إعادة البدائل الجادة في تسيير المؤسسة الاقتصادية، بل نفذت إجراء التصحيح الهيكلي أو التقويم الداخلي والذي أفضى إلى التقليل من عدد العمال دون البحث عن آليات إعادة تجديد قوة العمل في محيط صناعي اتسم بالتشنج وبالتبعية المطلقة إلى الخارج، وبتفكيك تلك القوة وإحالتها إلى وضع بطالة مقننة.

وبناء على ذلك فإن نواتج قوة العصبية وفعاليتها في المؤسسة كامنة في الدلالة المنطقية للمهام والرضا المتبادل بين العصبية المحورية المستقلة وباقي العصبية التابعة أو العصبية الهامشية، لضمان تحسين الأداء الكفاء والإنتاج والإنتاجية. ويمكننا تفسير ذلك وفقا للشكل الآتي:

- تكوين رؤية بعيدة عن العمل / المؤسسة.

- تحديد التوقعات العالية نظرا لولاء الأفراد العاملين لهم، وثقتهم فيهم.

- رسم النموذج التنظيمي: لإدراك خصائص سلوك التنظيم.

- تقوية المفهوم الذاتي للعمل (الإنفراد بالقرار).

- تقوية العصبية حسب طبيعة التكتل نحو إنجاز الهدف.

تموقع الأفراد حول عصبيتها الذاتية.

- تماثل العصبية التابعة إما نحو أو ميل العصبية إلى الاهتمامات التجميعية

- (نفس الأهداف العصبية المحورية أو التنظيمية).
 - الاتجاه القوي لهذه العصبيات نحو تحقيق الأهداف المنتظرة .
 - تقوية العصبية الثانوية التابعة بالمحافظة على حوافزها المادية.
 - تعزيز العصبيات الثانوية التابعة عندما تحقق العصبية المحورية المستقلة طلباتها واحتياجاتها المستمرة (التكوين، المكافآت، الترقية... إلخ).
 - إعادة تشكيل هذه العصبية الثانوية التابعة في حالة رفض العصبية المركزية خدمة أهدافها الجماعية.
 - الالتزام بضوابط العصبية المحورية المستقلة والانتماء العصبي: قوة الولاء والتضحية و التقيد بخدمة الأهداف الجماعية.
 - الالتزام التنظيمي إذا توفرت الشروط التحفيزية(السابقة الذكر)
 -تحسين الأداء.
 - زيادة الإنتاج والإنتاجية.

الشكل رقم (01): العصبية والفعالية التنظيمية في المؤسسة الصناعية الجزائرية⁽¹⁾

5-1- نواتج العصبيات في المؤسسة العمومية الاقتصادية:

بناء على ما سبق تتشكل في المؤسسة العمومية الصناعية ثلاثة مجموعات من العصبيات التنظيمية ويمكن للباحث تحديد نواتجها كما يأتي:

*المجموعة الأولى: وتشمل تحديد رؤية إستراتيجية ومستقبلية:

- تجسد هذه الرؤية للمسؤولين صانعي القرار وصانعي قرارات مستقبل المؤسسات الاقتصادية الصناعية العمومية، وقوة عصبيتها تجعل الالتزام بتقوية طاقات العمل، وتحفيز العمال، وتحديد معايير الفعالية، وخلق مؤسسة ناجحة تماشى ومتطلبات السوق المنافس ، وفي هذا المستوى بالذات تتشكل بالموازاة قوة عصبية دولية عندما تتحالف العصبية المحورية المستقلة (المسؤولين، صانعي القرار السياسي الاقتصادي، أرباب العمل) مع شركاء أجنبى يمتلكون قدرات فنية وتكنولوجية ومالية وتنظيمية رأسمالية متطورة، تعزز علاقاتها الرسمية وغير الرسمية لتحقيق استثماراتها الصناعية التسويقية،

وتتمكن من نقل رؤوس أموالها إلى بلدانها الأصلية، وفي كثير من الحالات استفادة هذه العصبية المحورية المستقلة من الخدمات التي يمنحها لهم الأجانب داخل وخارج الوطن، وعكس هذه الرؤية تدمر مستقبل المؤسسة وتقضي على دورة نمو حياتها واستمرار وجودها.

- يطبع المسؤولون معايير وتوقعات عالية للأداء، لأنهم يدركون أن الأهداف التي تنطوي على تحديات وفي آن واحد تكون قابلة للتحقيق، تؤدي إلى إنتاجية أكبر.

***المجموعة الثانية:** وتشمل توقع العصبية التابعة والهامشية في سلم القيم التنظيمية الخاصة بتحقيق أهداف التنظيم والمؤسسة الصناعية دون الأهداف الأخرى، عندما تعي المخاطر التي تهدد المؤسسة في حال عدم التقيد بالمعايير الفعالية الرأسمالية.

***المجموعة الثالثة:** وهي عبارة عن تحالف العصبيات التي تنتج لنا ما يأتي:

- تقوية دافعية العامل، و دافع إنجاز، وتحقيق الأهداف.
- زيادة درجة التماثل مع قيم وأهداف التنظيم.
- زيادة الشعور الذاتي للعامل بقدرته على تحقيق الأهداف التنظيمية من خلال السلوك الفعال الجماعي لفرق العمل.

- تقوية اتجاهات الجماعة المشتركة نحو تحقيق النتائج المطلوبة.

إذن فإن فعالية قوة العصبية في المؤسسة العمومية الصناعية تتوافق بين سلطة المسؤولين الذين يحصلون على تقييم عال للأداء، والقدرة على إدارة المشروعات، وجداول العمل، وترشيد النفقات، وتحقيق الأرباح وفوائض الأرباح، وينظر إليهم من قبل العصبيات الأخرى على أنهم مسؤولون فعالين، وأن مرؤوسيهم يتمتعون بالرضا وإنتاجية وجودة عالية تمكن تعزيز مكانتهم ومناصبهم، واستمرار دورة حياة المؤسسة.

الخاتمة:

إن هذه المقاربة السوسيولوجية بقدر أهميتها فقد تعكس لنا الواقع الموضوعي للتنظيمات الصناعية والنماذج التنظيمية و التسيرية المنتهجة في المؤسسات العمومية الجزائرية أو في المؤسسات الاقتصادية الصناعية في الوطن العربي عموماً، لكنها تفتقد في براغماتياتها وأدواتها التحليلية، ومخيلاتها السوسيولوجية لموضوعياتها في المجتمعات الغربية الرأسمالية المتقدمة أو حتى في مجتمعات النمر الآسيوية، على الرغم من أن تشعبات نظريات التنظيم والتطور هائلة، وبخاصة نظريات ما بعد الحداثة التي تركز بشدة ليس على (العصبية- الحضر) بل على أساس (الروح الفردية - الحداثة). هذه الروح القائمة على المعرفة بل إنتاج المعرفة في ظل مجتمع الموجة الثالثة.

-مراجع التهميش:

- (1) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ضبط و شرح محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 2006، ص129.
- (2) بوزياني الدراجي، العصبية القبلية. ظاهرة اجتماعية وتاريخية (على ضوء الفكر الخلدوني)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2003، ص24.
- (3) جورج لايبكا، السياسة والدين عند ابن خلدون، ترجمة موسى وهري وشوقي دويهي، دار الفارابي، بيروت، ط ، 1980، ص87.
- (4) إدريس خضير، التفكير الاجتماعي الخلدوني وأثره في علم الاجتماع الحديث، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص220.
- (5) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مرجع سابق، ص 153.
- (6) نفس المرجع، ص147.
- (7) عزيز العظمة، ابن خلدون وتاريخه، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1981، ص56.
- (8) Boutefnouchet) M, (.Société et modernité. Les principes du changement sociale ,

OPU, Alger, p50.

(9) (Hakiki) N, (khaldonisme sciences sociales et fondements du pouvoir politique , Ager, OPU, 1982, p42 .

(10) حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني: قواعد المنهج، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 61 .